المعرفة وبناء الإنسان

أ. د. محمد صبري الحوت

كلية التربية – جامعة الزقازيق

السؤال الذي يمكن طرحه بداية هنا.. بشأن الشق الثاني من هذا العنوان هو: لماذا بناء الإنسان؟ بل من قبل ذلك لنا أن نسأل: لماذا وجد الإنسان؟ هذا السؤال الذي تبرر الإجابة عنه ضرورة بناء وتنمية الإنسان.

وجد الإنسان:

- ليكون خليفة الله في الأرض. قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ البقرة.
- ليعبد الله. قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ الذاريات.
- ليعمر الأرض. قال تعالى: ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ**﴾ هود.

ولكي يتحقق هذا وغيره .. ماذا على الإنسان أن يفعل؟

تتطلب مناقشة هذه المسألة، بيان المرتكزات التي تقوم عليها الحياة على الأرض، حيث يرى المتأمل لذلك أن منظومة الحياة على الأرض تقوم على أربعة مرتكزات أساسية:

الأول: المكان: أي الأرض وما عليها، وما فيها،

الثاني: الزمان: الذي نشأ بدوران الأرض حول محورها وحول الشمس ودوران قمرها حولها،

الثالث: الإنسان: الذي يتفاعل مع الزمان والمكان.. مستفيداً من الفرص التي يتيحها كل منهما، فيتحقق له: الخلافة.. والعبودية لله.. والإعمار.. وغير ذلك.

أما المرتكز الرابع فنؤجل الحديث عنه.. قدراً قليلاً.

والمسألة المهمة التي تطرح نفسها هنا: هل يستطيع أي إنسان أن يحقق بجودة عالية وكفاءة مرتفعة.. الإستفادة القصوى مما يحمله المكان، ومما يحمله الزمان، ومما يحمله تفاعلهما معاً بما يحقق أهداف وجوده على الأرض؟.. بالطبع لا.

ذلك أن المطلوب هو إنسان تم تعليمه جيدا.. تم تدريبه جيداً.. أي تم إعداده جيداً بما يؤهله للقيام بما هو مطلوب منه.. وبما يؤهله للاستفادة مما هو متاح أمامه من فرص يجب اغتنامها في الوقت المناسب تحقيقاً لرقي حضاري مستحق.

هنا نأتي إلى ضرورة.. بناء/ تنمية الإنسان.

أي ضرورة القيام بعملية بناء: مقصود.. جيد.. فعال.. للإنسان. وهنا أيضاً تأتي وبقوة: المعرفة.

المعرفة كوسيلة لبناء الإنسان.. وكهدف أيضاً من وراء هذا البناء.

ذلك أن عملية بناء/ تنمية الإنسان.. تقوم على المعرفة باعتبارها وسيلة تحقيق ذلك، ومن ناحية أخرى، يؤمل أن يترتب على بناء الإنسان وتنميته- عن طريق المعرفة- أن يقوم هذا الإنسان.. بإنتاج

معرفة جديدة.. نستفيد منها في بنائه وتنميته مرة أخرى.. وهكذا في عملية مستمرة.. لا ينتهي ارتقاؤها إلى أعلا.

وهنا يأتي المرتكز الرابع لمنظومة الحياة على الأرض.. بعد المكان والزمان والإنسان.. ألا وهو: المعرفة.. وبخاصة المعرفة العلمية.

ولذا، كان تحديد الخالق سبحانه وتعالى للمتطلب المهم الأول.. الذي تم إشباعه لآدم عليه السلام بعد أن نفخ الله فيه من روحه، وهو: أن علمه الأسماء كلها.. أي العلم أولاً، قبل السكن وقبل الأكل وقبل الأمر بافعل كذا ولا تفعل كذا.

وقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان.. وميزه بالعقل والقدرة على التفكير.. وسخر له الكون وجعله مستودعاً لا نهائيا للمعرفة.

وبقدر ما يكتشف الإنسان من معرفة.. وينتجها من هذا المستودع.. ويستخدمها في تسيير أمور حياته والارتقاء بها.. بقدر ما تكون له الهيمنة والسيطرة والارتقاء الحضاري.

وبذلك، تأتي أهمية المعرفة.. العلمية.. العلم، للإنسان حتى يحقق لنفسه، ولبني جنسه: الرفاه والتقدم والتحضر. أي إعمار الأرض.. من خلال تفاعله- اعتماداً على ما لديه وما أنتجه من معرفة- مع مواد وثروات المكان.. وفرص الزمان.

ولكن، إذا كان الزمان يمر بالتساوي على كل البشر.. فهل تتساوى موارد وثروات المكان لدى كل البشر، باختلاف المكان؟.. بالطبع لا تتساوى.

إلا أنه، من خلال جهود وتفاعلات الإنسان المتعددة.. يستطيع تعويض تفاوت توزيع موارد وثروات المكان.. وبذلك، تظل ثروة المعرفة – نقلاً واكتساباً وإنتاجاً وتسويقاً- هي الأساس في صنع الحضارة وتقدم الإنسان.. باعتبارها المدرج الذي به يرتقي ويحقق ما يريد.. ذلك أن كل فرد وكل مجتمع يتصرف ويرتقي وفقاً لمدى ما لديه من معرفة.

وهذا ينقلنا إلى مسألة أخرى: هل نقل المعرفة وإنتاجها.. متاح أمام الجميع؟.. نعم.. إلى حد كبير.

ولكن، إذا كان الأمر كذلك، فلماذا يتفاوت الإنسان- باختلاف المكان والزمان- فيما يحققه لنفسه ولمجتمعه من مستوى حضاري وتقدم؟

يجب التأكيد بداية، على أن العلم لا يمكن أن ينقل إلى أرض غير مهيأة له.. كما يحدث للتكنولوجيا. وإنما ينمو في المجتمعات على جذور قوية.. ثم يتم تعهده بالرعاية من خلال بنية معرفية متكاملة.

أما عن التفاوت في المستويات الحضارية، فإننا نعود مرة أخرى: الإنسان.. إلى ما لدي هذا الإنسان من: دافعية.. إرادة.. همة. إلى ما صنعه هذا الإنسان لنفسه من فنارة.. تمثل له مستقبلا مأمولا.. يطمح في الوصول إليه.. مستعينا بالمعرفة.. ولا يفيد في ذلك أي شيء غيرها.. فيسعى إلى توفير هذه المعرفة.. نقلاً ثم إنتاجاً.

وهكذا، تستمر هذه العملية.. به وله.. ما دامت الحياة قائمة في المكان، وما دام الزمان يستمر في الدوران.

ولكن، ما زالت القضية مطروحة: لماذا تتفاوت تجمعات الإنسان- باختلاف المكان والزمان- فيما تحققه من أهداف.. وفيما تصنعه من حضارة؟

إن الحضارة التي يصنعها الإنسان.. ليست ناتجة عن حركة قصور ذاتي أو حركة عفوية.. إنها تتطلب فعلاً مقصوداً واعياً.. إنها تتطلب نوعية إنسان محددة.. إنها تتوقف على ما فعله هذا الإنسان في نفسه ولنفسه.. من تنمية ذاتية.. إن كانت هذه التنمية موجودة أصلاً.

وماذا عن حالنا.. أفراداً ومجتمعاً؟ لماذا نحن في مستوى حضاري أقل من غيرنا؟ لماذا لم نفلح في إعمار المكان؟ لماذا لم نستفد من موارد وثروات المكان؟ لماذا لم نستفد من فرص الزمان؟ لماذا لم نستفد من كم ما لدينا من إنسان؟.

الحال الدال على نفسه.

لننظر إلى أنفسنا كأفراد وكمجتمع، ولنقيم حالنا بموضوعية: ماذا حددنا لأنفسنا من أهداف.. ماذا نريد؟ ما هي فنارتنا.. وأين توجد؟ هل سألنا أنفسنا يوماً: لماذا سبقنا ويسبقنا غيرنا في ماراثون الحضارة الإنسانية؟ ثم، لماذا لم نسأل انفسنا أصلاً هذا السؤال؟ ولماذا لم نبحث عن إجابة علمية حقيقية بشأن ذلك؟

وبافتراض أننا حددنا لأنفسنا أهدافاً قومية حضارية: فإلى أي مدى اعتمدنا على المعرفة العلمية في وضع هذا الأطراف.. وفي تحديد سياسات واستراتيجيات وإجراءات تنفيذها؟ وما المبادئ التي اعتمدنا عليها في تحديد هذه الأطراف؟ ما جهودنا في نقل ما نحتاج إليه من معرفة لتحقيق ذلك؟ هل بذلنا جهداً في إنتاج معرفة خاصة بنا؟ ما مقدار وما قيمة ما ننتجه من معرفة علمية؟

إجمالاً.. ما قيمة ما نقوم به من جهود في بناء/ تنمية الإنسان .. الذي يحقق لنا المستوى الحضاري المنشود؟ وإلى أي مدى نعتمد على المعرفة العلمية في ذلك؟

يدل حال الواقع الفردي والمجتمع على أن ما نحققه من مستوى حضاري ليس كما ينبغي في ضوء الاعتبارات التاريخية الخاصة بنا، وفي ضوء ما نملكه من ثروات المكان.. وكم الإنسان.. وأيضاً فرص الزمان التي نضيعها الواحدة تلو الأخرى.. بقدر من اللامبالاة غير المعهودة.

هذا يعني، أن جهودنا في بناء/ تنمية الإنسان.. وفي إعلاء قيم الإرادة والهمة والفعالية.. ليست على الحال الذي يجعله قادراً على الوصول بنا إلى المستوى الحضاري اللائق.

وإذا كانت الشواهد التاريخية تدل على أن المطالب لا تنال بالتمني.. ولكن يجب أن تؤخذ الدنيا غلابا. وأنه ما استعصى على قوم منال.. إذا الأقدام كان لهم ركابا.

فما الحل؟ هل هناك من أمل؟

رياضياً.. لو قمنا بعمل إسقاط اتجاهات الماضي وحال الحاضر.. على المستقبل لتحديد المستقبلات البديلة.. لوجدنا أنها ستكون سيناريوهات تشاؤمية.. حيث طال أمد أوضاع الماضي المتدنية لعدة عقود.. وحيث ضبابية الرؤية بشأن أحوال الحاضر.. فلا نكاد نرى بصيص أمل مشرق.

ومن ثم، لو استمرت الأوضاع على ما كانت عليه.. وعلى ما هي عليه.. فإن المستقبل.. حقيقة.. غير مأمول فيه.

فالقرن الجديد.. هو قرن المعرفة وبناء مجتمعات المعرفة. ومن ثم، يصبح امتلاكنا وإنتاجنا للمعرفة.. بمثابة الرد على حالة التخلف التي عشناها لعقود عديدة.. ويكون أيضاً بمثابة المواجهة الأساسية لفكر التكاسل والتباكي على أمجاد الأجداد.

وماذا أيضاً؟

لا سبيل أمامنا إلا الاهتمام بالمعرفة.. نقلاً وإنتاجاً.. في بناء/ تنمية الإنسان في هذا المجتمع. حيث- كما ذكرنا- لا يمكن الاستفادة من ثروات المكان وفرص الزمان.. إلا بالإنسان المتسلح بالمعرفة.. القادر على إنتاجها.. المتسلح بالدافعية الوطنية.. وبالإرادة القوية.. وبالهمة العالية.. وأن يكون لسان حاله يردد: خذوا ما شئتم من مناصب، ومن مكاسب.. واتركوا لي وطني.. أعلو به، ويعلو بي.